الزمان والمكان في الشعر الجاهلي

إعداد: باديس فوغالي
أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، 2004[1].

إن المتأمل في الشعر العربي القديم يجد ثمة علاقة بينة تربط بين الشاعر وبيئته، وتتخذ من عنصري الزمان والمكان مرتكزا أساسيا يكسب هذه العلاقة صبغة خاصة، وقد تتعمق هذه العلاقة وتتوطد،فتتحول إلى رؤية تختزل التصور العام للكون والحياة، وفق منظور معين.

إنّ للمكان نكهة خاصة تولد في الأديب إحساسا متميزا يجعله ينتشي، ويتصهد وجدانيا كلما لامس شعوره جانبا من ذلك المشهد المكاني الغائر في أعماق ذاكرته، وهو الأمر الذي كان يدفع الشاعر القديم إلى قطع الصحاري الموحشة، والبراري المقفرة، وطي المسافات البعيدة على ظهر راحلته متكبدا وعثاء السفر، ومشقة الترحال، والتنقل الاختياري، غير عابئ بالمصاعب والأهوال ليعيد نظره، ويسبح ببصره في أرجاء أطلال ذاهبة الملامح. إذ يقف الساعات الطوال، يعيد بتأملاته الشعرية مسرحا كان حافلا بالغنج والعنفوان، فيطيل التوحد بالمكان، وكأنه في حالة تعبد.

لقد كان الشاعر الجاهلي وهو يقف محاورا الأشياء، والأماكن في مطالع قصائده في لحظات التذكر والاستعادة للماضي يسعى إلى إعادة بناء علاقته مع تلك الأماكن لاستحضار بعض تفاصيلها، وذلك قصد إجلاء ما تنطوي عليه من قيم

---

[1] تشكلت لجنة المناقشة من الأعضاء الآتية أسمائهم: رابح دوب (رئيسا)، يوسف غيوة (مشرفا ومقررا)، عبد القادر هني (عضوا)، الربعي بن سلامة (عضوا) وحسن كاتب (عضوا).

ودلالات وجوديـــة، وفلسفية، تساعده على الانسجام مع ذاته، وخلق التواصل بين حاضره وماضيه.

من هذه العلاقة المرتبطة بالماضي في تبدده،وبالحاضر في تغيره ارتبطت القصائد الجاهلـــية بتجربة الشاعر الإنسانية، إذ تحولت من مجرد وقفات تأملية استجابة للتقليد الفني الشائع إلى حقيقة وجودية تعبر عن جملة من الآراء والمواقف، وتترجم الأحاسيس التي يعيشها الشاعر بكيانه ووجدانه، وعقله إزاء الحياة والموت.

في ضوء هذا التصور صارت العلاقة بين الشاعر والطلل علاقة جوهرية قائمة على الزمن في أبعاده ومستوياته الثلاثة الكبرى ابتداء من ماض بائد، إلى حاضر ماثل، فمستقبل غائب مشرب بالضبابية، والغبش.

إن هذه العلاقة الكائنة بين ما هو قائم، وما هو في حكم الغيب ساعدت على بروز ظاهرة الإحساس بالقلق، والخوف، حيال الزمن عند الشاعر الجاهلي الذي كان واعـــيا زمنه، لأنه كان كلما فكر، أو استحضر ماضيه في لحظات الحسرة والتمزق على ما انطوى، كلما كان إدراكه للزمن أعمق.

إن المسك بأطراف الزمن، الذي اكتسى في التجربة الشعرية الجاهلية مفاهيم متعددة يوحي أغلبها بالسطوة والهيمنة [*]، وكذا الوقوف عند أبعاده على امتداد المتن الشعري يكفل للدارس التعرف على طبيعة الحياة التي كان يحياها،وتفضي دراسته إلى الوقوف على جوهر هذه الحياة بكل أبعادها وجوانبها، وتجلياتها.

إن دراســـة الـــزمن في الحقـــيقة هي دراسة عميقة للحياة القديمة،ولولا هذا الإحســـاس المتمـــيز بقيمة الزمن وأهميته ما تمكن الشاعر الجاهلي من إنتاج هذا الكم الهائل من الشعر، ولا استطاع أن يبدع في أغراض الرثاء،والشكوى، والتأمل الفلسفي في الحياة والفناء.

---

[*] من المفاهيم التي تكررت في المتن الشعري الجاهلي: الدهر،ريب الزمان،غدر الزمان،أحداث الدهر،ريب البرية،بنات الدهر،ريب المنون..إلخ.

لهـــذا المعطى البيئي المتميز أرى أن النص الشعري الجاهلي يتأسس ويقوم على نواتين عميقتين في معماره الداخلي، وهما:

ـــ الـــزمان والمكان، لأن اللغة الشعرية، وهي تتناسج عبر قناة الزمن، تحفر في الذهن مفـــارق مكانـــية تظـــل بتعاريجها عالقة بالمخيال، حتى وإن خبت جذوة القصيدة. فاستحضـــار أنوية الأمكنة التي عرفها الشاعر، أو عاش في ربوعها هو عملية سيرية، وإفراغية لعالم الأحلام، واللاشعور الفردي والجماعي،تتداخل في تشكلها عوامل بيئية، ونفسية، وميثولوجية، واثنولوجية عديدة.

لـــذا رأيت أن الشاعر الجاهلي كان مدركا لمشكلة الزمن، وقد وعاه وفق ما كـــان يعيشـــه ويعايشه من تبدل وتغير على مستوى ما كان ماثلا في واقعه، أو على مستوى تمثله للمسائل التي كانت تشغله وتأخذ حيزا هاما من انشغالا ته وتفكيره.

ولذلـــك لاحظت أنه لولا إيمان الشاعر الجاهلي بحب البقاء، وتعلقه بالحياة، وتشبثه بالأرض التي أنجبته،لما كان للزمان أثر يعتد به في شعره.

وإلى جانب الزمان اتخذ المكان ممثلا في الطلل مظهرين متقاطبين:

ـــ مظهـــر حاضـــر،تجـــلى في موقف الشاعر من الكون،وقلقه الروحي إزاء الموت والفناء،أي حيرته أمام محور الزمن الذي تتعانق على أطرافه الموجودات.

ـــ ومظهـــر غائب عبر عن ممارسة شعيرة عقدية بوقوف الشاعر على جثة الماضي، ومحاولة استحضار الحياة من خلالها.

وهكذا ألفيت أن عنصري الزمان والمكان في الشعر الجاهلي يستحقان الدراسة فكريا وجماليا،وذلك بغية الإمساك بالمعطيات الوجودية التي كان يحياها الشاعر آنذاك.

إن مســـاءلة الدواعـــي التي دفعت الشاعر الجاهلي إلى قطع القفار والبراري للوقـــوف عـــلى بقايا ديار دارسة،أو محاولة معرفة السر في رهبة الشاعر من "الدهر" و"الـــزمن"، وخوفـــه من المصير المجهول عبر الأمكنة شرقا، وغربا،شمالا، وجنوبا، أو بكائـــه على الموتى والأحبة، أو شكواه من صروف الدهر، وتغير الأزمنة، أسئلة تثار لاستجلاء نتائج الإجابات عنها.

إنّ قناعتي بكون القصيدة الجاهلية في مضامينها، وأبعادها الفكرية، والجمالية قصيدة كونية،هي القناعة التي تعد أهم الدوافع التي حفزتني على ركوب هذا الموضوع، لأن أغلب الدراسات التي تناولت الشعر الجاهلي آثرت التركيز على الجانب التفسيري، والوصفي، متخذة من أغراضه الشعرية الشائعة ميدانا للبحث الموضوعاتي، مقتصرة في التعامل مع العناصر الأساسية التي تتمحور حولها الموضوعات التقليدية.

لقد كان الزمن ولا يزال الهاجس الجوهري الذي أرق، ويؤرق الشعراء منذ القدم،بحكم ارتباطه بآليات الحياة الوجودية من ماض،وحاضر، ومستقبل، فكل شيء يراود الشاعر، أو يكون سببا في تصالحه، أو تصادمه مع الحياة، يصب في مجرى الزمن.

وقد ارتأيت أن تكون محاولة الإلمام بهذا الموضوع في تقسيم الأطروحة إلى :

مقدمة، وتوطئة، وبابين ،لكل باب فصلان، وخاتمة.

أما التوطئة فأودعتها الحديث عن نشأة الشعر الجاهلي، حيث تطرقت إلى تحديد مفهوم الشعر في ضوء آراء النقاد القدامى. وإن تباين بعضها في الشكل، فإنه قد تقاطع في جملة من المعايير، أهمها:

الوزن بشقيه: الإيقاع الداخلي،والإيقاع الخارجي، وكذا القدرة على القول الشعري، وتوفر عنصر الخيال في العملية الشعرية، إضافة إلى خاصية التفرد والتميز التي تميز شاعرا عن آخر.

ثم تناولت لفظة الجاهلية التي كانت تتراوح دلالتها بين معنى الجهل، ومعنى الأمية، مستدلا بشواهد من القرآن الكريم وعيون الشعر الجاهلي في السياق اللغوي والتاريخي.

بعدها حاولت تحديد الفترة الزمنية ،التي قيل فيها ما وصل إلينا من شعر جاهلي،مستدلا بآراء بعض النقاد والمهتمين بالدرس الأدبي القدامى، ومستنيرا بالنتائج التي تساوقت في ظاهرة التطور التي عرفها الشعر العربي، حيث قطع وسعا زمنيا هاما تدرج فيه من مظهر التعبير الصوتي، والأداء الإنشادي في صورة تراتيل اجتماعية، وترانيم دينية حتى انتهى إلى الهيئة التي عرف بها على مستوى الإيقاع والنسج.

أمـــا الـــباب الأول فقد خصصته لدراسة الزمن،حيث مهدت له بمهاد نظري جعلـــته تتبعا وتقصيا لمفهوم مصطلح الزمن وتطوره مبينا أهميته في حياة الأمم، ومحددا مفهومـــه في اللغة، وفي الفلسفة ،ثم ختمته بتحديد مفهوم الزمن انطلاقا من التجربة الشـــعرية الجاهلية بغية خلق التعليل التسويغي لدراسة الفصل الأول، والثاني من الباب الأول، حيث جعلت الفصل الأول يعالج التجربة العقلية، أما الفصل الثاني فقد أفردته لمعالجة التجربة الوجدانية.

إن الفصـــل الأول الذي شكل التجربة العقلية في تجربة الشاعر الجاهلي الشعرية قد تفرع بدوره إلى تجربتين خضعت كلتاهما إلى رؤية خاصة.

فالتجربة العقلية الأولى انبثقت من رؤية يقينية للزمن كانت حصيلة وعي عميق، وإدراك شـــامل لماهـــية الزمن وتحولاته، وقد ترجمت هذه الرؤية في أشعار جملة من الشعراء عرفوا بتبصرهم في إدراكهم واستيعابهم لبعض الحقائق الوجودية.

أمـــا التجربة العقلية الثانية، والتي قاطبت الأولى في التلقي، والتمثل لمختلف مظاهـــر الـــزمن، فقـــد انضـــوت تحت رؤية تشاؤمية، اتسم الشعراء الذين تمثلوها بالتوتر،والقلق، والخوف من المصير المرتقب،بحكم تلقيهم الحقائق الكونية، والمسلمات اليقينية كالفناء، والعدم، وغير ذلك بأحاسيسهم الفردية، ووجدانهم الذاتي.

في حـــين شـــكل الفصـــل الثاني التجربة الوجدانية في تجربة الشاعر الجاهلي الشعرية،وقد تفرعت هذه الرؤية على مستوى التمثل والتلقي لمختلف مظاهر الزمن إلى رؤيتين متضادتين:

ـــ رؤية اتسمت بالتفاؤل وقد انضوى تحتها الشعراء الذين تغنوا بالخمرة، وعبروا عن الخصوبة والنماء، وكذا التكاثر والتجدد، والانبعاث من خلال صورة المطر.

ـــ ورؤيـــة اتسمت بالتشاؤم، حيث عبر الشعراء الذين تمثلوها عن قلقهم، وتوترهم، وخوفهم من المجهول، وذلك عن طريق استخدامهم لصورتي الليل والشيب كصورتين تتشحان بالسوداوية والتشاؤم.

أمـــا الباب الثاني فقد خصصته لدراسة المكان، حيث مهدت له كذلك بمهاد نظري، تتبعـــت في ضـــوئه مفهوم مصطلح المكان عند اللغويين، وعند الفلاسفة من القدماء والمعاصـــرين، ثم حـــددت مفهومه في ضوء الدراسات الأدبية الحديثة، قصد التأثيث الفكري والجمالي لتبرير صورة المكان في التجربة الشعرية الجاهلية.

وتناولت في الفصل الأول منه المكان في التجربة الشعرية الجاهلية،حيث بينت أهميـــته، وخصوصيته الفكرية والوجدانية والجمالية التي يكتسيها داخل العمل الأدبي، مبيـــنا مظاهـــره الفنية في حياة الشاعر الجاهلي، الذي عمل على إبراز قيمته في بيئته والوقـــوف عـــند أهميته في حياته، وحياة مجتمعه بالتنويه والفخر تارة، وبإبداء معاني الانتماء والولاء تارة أخرى. وقد بدا واضحا موقف الشاعر الجاهلي إزاء المكان بكل ملامحه، وتنوعه، وارتباطه الوثيق بمحليته.

وقد شكل هذا الفصل نوعان من الأمكنة بارزان في حياة الشاعر الجاهلي:

نـــوع يحمل الخصوصية الجماعية،وتنضوي تحته الأمكنة ذات الطابع الجمعي، حيث يمتزج صوت الشاعر بصوت القبيلة، وتغدو الأمكنة قرائن، وإشارات تدل على عمق الانـــتماء للقبيلة والحرص على تعميق هذه العلاقة بإبداء الولاء، والإخلاص لقيمها، وكـــل ما تعتز به في أوقات الرخاء والشدة، وقد حمّل الشاعر هذا النوع من الأمكنة هموم الجماعة في مختلف السياقات.

أمـــا النوع الثاني فقد انضوت تحته الأمكنة ذات الطابع الذاتي، حيث حمّلها الشـــاعر همومه الفردية وانشغالا ته الوجدانية، وقد تبلورت تجربته مع هذا النوع مما عاشـــه ،وعايشه في شبابه من لهو ومغامرات غرامية، وتفاخر بالشباب. فتجسد كل ذلك في الطلل كصورة مكانية ترمز إلى سلاح الشاعر ضد الفناء، ومعاول الزمن، وقد بـــدا هـــذا الـــنوع موظفـــا توظـــيفات متباينـــة، ومـــتفاوتة عـــلى مســـتوى التلقي،والاستقطاب،وليس كصورة مكررة،كما شيع حوله في مختلف الدراسات.

وفي الفصل الثاني تناولت مستويات المكان في الشعر الجاهلي ودلالاته، حيث خالفت تصور بعض الدارسين للمكان في المتن الشعري الجاهلي، حين حصره بعضهم في المقدمة الطللية وحاول بعضهم الآخر نفي ظاهرة " الأمكنة" في تلك التجربة.
ولقد بينت أن المكان كان هاجسا مركزيا شغل الشعراء، و لم يكن مجرد وقفة من الوقفات،يستهل بها افتتاحياته الشعرية، كما كان فضاء نفسيا، واجتماعيا وفكريا وجماليا اتخذ منه الشاعر منطلقا لكل انشغالا ته الماضية،الراهنة والمستقبلية.

بعدها حددت الأبعاد الدلالية للمكان باعتباره رؤية جمالية تتزهه من الارتباط الحرفي بالواقع الجغرافي المائل، وتجعله فضاء دلاليا متعدد الوظائف في الشعر الجاهلي،فقسمته إلى مستويات ذات أبعاد متعددة ومتفاوتة، حيث جعلت الأمكنة الاستعراضية التي عادة ما تعترض رحلة الشاعر، أو يشير إليها كعلامة من العلامات التي تعلم المكان المركزي، الذي يقصده ذات بعد استعراضي،وهي أمكنة تحفر في سياق التذكر حضورا إضافيا، يشير، ويلمع جوانب ومعالم المكان الماثل.

ومستوى آخر اتسم بخصوصيته الارتفاعية،حيث امتازت أمكنته بعلوها عن مستوى الأرض،ولذلك جعلتها ذات بعد ارتفاعي، لأنها لا تشبه الأمكنة القارة، التي يتخذها الشاعر مقرا للإقامة الدائمة، إنما هي أمكنة مؤقتة لها شروطها وظروفها البيئية، والوظيفية.

أما المستوى الثالث، فذو دلالة حركية، حيث اتصفت أمكنته بعدم الثبوت، كما كانت تشير إلى ذاتها، و لم تكن تشير إلى الشخصية التي تؤهلها،وهي غالبا ما تستحضر عبر مدارج التخيل انطلاقا من مشاهد مكانية ماثلة في الطبيعة.

في حين ألفيت المستوى الرابع يحمل مدلول البعد الصوتي، وذلك لكونه يشمخ في المخيال انطلاقا من الأصوات التي تدل عليه، إذ قصدت بهذا المستوى الأمكنة التي تبرز جمالياتها من خلال الصوت فحسب، دون مظاهرها الجمالية الأخرى.

أمـــا المستوى الخامس والأخير،فحمل مدلول البعد الشمي،حيث لخص هذا المســـتوى مـــن الأمكـــنة بجملة وظائف حسية عملت على إجلاء المشهد الموصوف بوساطة قرائن دلالية،لها علاقة بحاسة الشم، إذ يتشكل في المخيلة من مجموعة الأشياء المشمومة، التي تثيرها مختلف "الإيقونات" المرتبطة بالمشهد في إطار نسقه الدلالي العام.

وختمت الأطروحة بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي بلورها البحث،ألخصها في النقاط الآتية:

1 ـــ عمر البدايات الأولى للقول الشعري ـــ وأقصد بها المقطعات الشعرية ـــ تتجاوز الفترة التي حددها الجاحظ،حين حصرها ما بين 150 إلى 200عاما قبل الإسلام.

إنمـــا تعود حسب بعض القرائن إلى ما قبل نهاية القرن الخامس الميلادي، وقد أســـفرت جهود "عادل الفريجات " الإحصائية بعد عمليات الجمع والشرح والتحقيق والـــتخريج إلى إحصاء قرابة 40 شاعرا سبقوا امرأ القيس عاشوا ما بين القرن الثالث ،وأواسط السادس الميلاديين.

2 ـــ الشـــعر الجاهـــلي تطور عن جملة من مظاهر التعبير الصوتي، والأداء الإنشادي اســـتجابة لرغبة الشاعر النفسية، أو الاجتماعية ، أو الدينية في صورة تراتيل، وترانيم، وتسابيح حتى انتهى إلى الهيئة التي عرف بها على مستوى الإيقاع والبنية والنسج.

3ـــ لقد تمثل الشاعر الجاهلي الزمن تمثلا واقعيا مستمدا من الحياة اليومية التي كان يحيا لحظاتهـــا بأحداثها لحظة بلحظة ضمن شعور عميق بالقلق والإحساس بالتوتر إزاء تمثله المادي.

4ـــ عـــلى الرغم من إسهام الحياة العربية القديمة في احتضان الشاعر الجاهلي وتوحيد مجال اهتمامه على مستوى وحدة الفكر، وحدة الصراع،فإن ثمة اتجاهين برزا في حقل التجربة الشعرية الجاهلية، هما :

– الاتجـــاه العقـــلي ممـــثلا في الشعراء الذين أخضعوا أشعارهم لجملة من المعايير التجويدية تستلزمها العملية الشعرية.

– والاتجاه الذاتي ممثلا في الشعراء الذين عبروا بتلقائية عما شعروا به، وأحسوه.

5 ــ اتخذت نظرة الشاعر الوجودية للطلل مظهرين مختلفين :

ــ أحدهمـــا تعامل من خلاله مع الطلل الماثل بجسده، وكيانه، ووجدانه، وعاش الزمن نفسه أي الزمن" الفيزيائي".

ــ أمـــا الـــثاني فاستحضر في ضوئه الشاعر ملامح الطلل قصد استعادة إحساسه بالتعايش مع مشاهد الماضي المستحضرة من الذاكرة.

6 ــ لم يكـــن الشاعر الجاهلي منفصلا عن ماضيه، كما لم يكن مأسورا في حاضره، إنما كان مشدودا بالذكريات ،وهو يواجه واقعه البيئي مع التطلع إلى آفاق المستقبل.

7 ــ إن عـــادة شرب الخمر لدى الشاعر الجاهلي إلى جانب كونها كانت ملمحا من ملامح البذخ والرفاهية ، وإبراز الرجولة والتظاهر بالسخاء، فإنها في الوقت ذاته كانت محطة أساسية يسترجع فيها أنفاسه للإنعام بمباهج الحياة من أبوابها الواسعة.

8 ــ رؤيـــة الشاعر التفاؤلية للزمن كان مصدرها تحسس المتعة التي تنتجها جلسات احتســـاء الخمرة، ووقفات تتبع سقوط المطر لما ينطوي كلاهما على الارتباط الحيوي والإيجابي بالحياة.

9ــ عـــلى الرغم من تفاوت درجة تلقي الشعراء الجاهليين لوطأة الليل على وجدانهم ألفيـــت ثمـــة جامعا مشتركا كان يوحد بينهم في درجة إحساسهم بعدم جدواه،مع تفاوت نسبي بينهم في تحويل هذه الحالة إلى واقع شعري.

10 ــ لقد عملت ظاهرة الرحيل وعدم الاستقرار في حياة الشاعر الجاهلي، وما ينتج من فراق بين الأحبة،مرورا بامتدادات الصحراء المقفرة، وحلكة لياليها الموحشة على تجذير إحساس الشاعر بالأرق، وتلوين حياته بطابع التشاؤم والسوداوية.

11 ــ لقد كانت تشد تجربة الشاعر الجاهلي مع الشيب قوتان:

ــ قوة الفعل الذي يعيشه واقعيا.

ــ وقوة الحلم والأماني التي تحاول التغلب على القوة التدميرية لهذا الفعل.

12 ــ كانـــت القبائل العربية تدفع إلى النزوح من حمى إلى آخر تحت ضغط عاملين اثنين، هما :

ـــ العامل الاقتصادي الذي يلخص في الماء سر الخصوبة والحياة.

ـــ والعامل السياسي الذي يرد إلى النزاعات القبلية بسبب الشرف والخصومات، إذ عادة ما تلجأ قبيلة ما إلى النزوح خوفا من نشوب الحرب.

13ـ لقد كان الطلل نواة المكان لدى الشاعر الجاهلي لايزول مع تركه ومغادرته، إنما ظـــل في ذاته ينبض بالحياة. كما كان المكان في المتن الشعري الجاهلي ممثلا في الطلل رمـــزا لمقاومة الإنسان لعاديات الزمن، وأهوال الطبيعة، يعكس بصورة، أو بأخرى التفاعل الوجداني لهذا الإنسان مع متغيرات الحياة.

14 ـــ امـــتاز المكان في المتن الشعري بالتعدد والتنوع في الدلالة والإيحاء، إذ لم يكن محصـــورا في الوجـــود "الطوبوغرافي" الماثل بتضاريسه البيئية، لكنه كان كذلك فضاء صوتيا وفضاء شميا، وفضاء سمعيا.